مذهب اللذة

أ. د/ محمود حمدي زقزوق(*)

أ- مذهب اللذة في الفلسفة اليونانية:

يستند مذهب اللذة إلى أن كل الكائنات الحية ابتداء من الولادة لديها الميل إلى اللذة، في حين أنها تعارض الألم بطبيعتها وبدون تفكير في ذلك.

وقد ذهب السفسطائي (كاليكليس) (حوالي ٤٠٠ ق. م) إلى أن خير الإنسان يتمثل في اللذة. وكان السفسطائيون عمومًا يقولون: إن الطبيعة الإنسانية شهوة وهوى، ويرتبون على ذلك أن غاية الإنسان اللذة كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

المدرسة القورينائية:

وذهب (أرستيب) مؤسس المدرسة القورينائية: (نسبة إلى مدينة قورينا من أعمال برقة بطرابلس الغرب التي ولد فيها عام ٤٣٥ ق. م) إلى أن المرء ينبغي عليه أن يختار اللذة ويسعى إليها، وعلى العكس من ذلك ينبغي عليه أن يهرب من العناء الذي لا يجلب اللذة، كما ذهب إلى أن اللذة هي صوت الطبيعة، فلا موجب للحياء أو الخجل، ما دامت كل القيود أو الحدود من وضع العرف.

ويدور معظم حديث (أرستيب) حول اللذات الحسية[1]، وكان يرى أن المرء ينبغي عليه أن يطلبها أينما وجدت ولكن من غير تعلق بها؛ وذلك لأن التعلق بها مصدر قلق وألم، ومن غير تفكير في المستقبل؛ لأن هذا التفكير مصدر قلق وألم كذلك. فالسعادة في التخلص من الشهوة باللذة التي ترضيها أو بالتخلص من الحياة، متى لم يعد منها نفع[2].

وقد نتج عن هذا المذهب بالنسبة لعلم الأخلاق نتائج مختلفة، وقد رتب البعض عليه رفض المطالب الخلقية، وهذا يعنى الإباحية، وممن ذهبوا هذا المذهب الإباحي (تيودورس أتيوس) (حوالي ٤٠٠ ق. م) من مدرسة (أرستيب) فكان يقيس الأعمال بنتائجها -مهما كانت الوسائل- ويرى أن السرقة والتزوير،

(*) عضو هيئة كبار العلماء -رحمه الله-.

(١) المشكلة الخلقية. ص: ١٢٢.

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية. ليوسف كرم. ص: ٦١.

وعدم احترام المعابد المقدسة، وما إلى ذلك يمكن أن تكون مباحة أحيانًا، وبذلك ذهب إلى الحد الأقصى في تطبيق مذهب اللذة الهدام.

ولكن التمادي في التطرف يحدث في الغالب أثرًا عكسيًّا، وينقلب إلى ضد الغرض المنشود، فقد كانت الأخلاق القورينائية تقوم على الاستمتاع بالحياة ولذائذها، والبعد عن الآلام جميعها، ولما رأى أحد رجال هذه المدرسة المتأخرين وهو (هيجسياس) أن من غير الممكن الحصول على هذا الغرض، وذلك لأن اللذة أمر لا يمكن تحصيله، وهي مع ذلك سرعان ما تزول، ذهب إلى أنه من الخير لنا أن نتخلص من الحياة بالانتحار استشفاء من متاعب الحياة وآلامها بالموت الذي لا ألم بعده.

وقد تابع هذا الرأي كثير من الذين خدعتهم آراء (هيجسياس) فانتحروا، ولذلك أطلق عليه لقب الناصح بالموت، ولما فشا الانتحار خشي الملك (بطليموس) استفحال هذه الدعوى، فأمر بنفيه وإغلاق مدرسته، ثم مات (هيجسياس) بعد ذلك منتحرًا[٣].

المدرسة الأبيقورية:

ولما جاء (أبيقور) (٣٤١-٢٧٠ ق. م) وأسس المدرسة الأبيقورية، كان متفقًا مع (أرستيب) في القول بأن الناس ينشدون اللذة كالحيوانات سواء بسواء، بدافع غريزي لا أثر فيه للتفكير أو التعليم، ولكنه وجد أن اللذة وإن كانت غاية السلوك البشري؛ إلا أنها أحيانًا قد تجر وراءها عواقب سيئة، إذ إن الإفراط في الشهوات والملذات قد يؤدي إلى عواقب جسمية وخيمة، ولهذا فمن اللازم اجتناب كل لذة تجر وراءها ألمًا، وكذلك تقبل الألم الذي يجلب لذة أعظم، وهكذا ينبني المذهب الأبيقوري على القواعد الأربع الآتية:

١- خذ اللذة التي لا يعقبها ألم.

٢- اجتنب الألم الذي لا يستتبع شيئًا من اللذات.

٣- تجنب اللذة التي قد تحرمك من لذة أعظم منها، أو تسبب لك ألمًا أكثر مما فيها من اللذة.

٤- تقبل الألم الذي يخلصك من ألم أعظم منه، أو يجلب لذة أرجح من ذلك الألم[٤].

٥- ومن أقوال (أبيقور): لا تسرف في الأكل خشية سوء الهضم، ولا في الشرب خشية ما يحدث صباح اليوم التالي، واحتقر المرأة، والسياسة، وسائر الأعمال الشهوانية[٥].

ومن ذلك نرى أن (أبيقور) هو أول مخترع لما سمي بحساب المنفعة، فلا نطلب اللذة الحاضرة لمجرد كونها لذة فحسب؛ بل نطلب منفعتنا طول الحياة إن أمكن، أي نطلب لذة خالصة دائمة هي ما يعبر عنه بالسعادة[٦].

(٣) انظر تاريخ الأخلاق، ص: ١٠٢ وما بعدها، والفلسفة الخلقية، للدكتور الطويل، ص: ٥٢.

(٤) انظر تاريخ الأخلاق، ص: ١٠٧، والأخلاق النظرية، ص: ٢٤٣ وما بعدها.

(٥) المدارس الفلسفية، للدكتور الأهواني، ص: ٨٢.

(٦) دروس في تاريخ الفلسفة، ص: ٣٧.

ولم يكن حديث (أبيقور) منصبًّا على اللذات الحسية فقط -كما فعل (أرستيب)- بل إنه قد أعلى من شأن اللذات الروحية، ودعا أيضًا إلى اتباع مطالب الفضيلة، فقد كان يوصي بالقناعة ويعتبرها الفضيلة الأساسية، لأنها تحفظ الصحة وتطيل الحياة، وفي الصحة والحياة تتجمع كل وسائل السعادة، وكان يدعو إلى الصداقة ويعتبرها من أسمى الفضائل؛ لأن الصديق يعين صديقه ويحميه ويدفع عنه الظلم والاعتداء، ومن أجل ذلك فمن الخير جمع أكبر عدد من الأصدقاء بقدر الإمكان، والعدالة فضيلة؛ لأنها تمنع المرء من التعدي على غيره خشية رد الفعل، فالحكيم يرعى العدالة ليضمن لنفسه السلامة من الانتقام، ومن خوف الانتقام، فيعيش في اطمئنان، وهذا خير ما يطلب[٧].

ولكن من الواضح أن (أبيقور) بمثل هذه النصائح لم يكن يمثل مذهبًا أخلاقيًّا حقيقيًّا. فدعوته إلى الفضائل لم تكن دعوة حقيقية؛ لأن الفضائل لديه لا اعتبار لها إلا إلى الحد الذي يجلب للشخص المنفعة، ويكفل الطمأنينة.

ومن جانب آخر شوه أتباع الأبيقورية من الرومان هذه الأخلاق القائمة على القناعة والاعتدال، والداعية إلى طمأنينة النفس، ومالوا بها إلى الاندفاع لانتهاب الملذات، والانغماس في كل أنواع الشهوات[٨].

ب- مذهب اللذة في العصر الحديث:

لم يجد مذهب اللذة ممثلين له في العصر الوسيط، كما لم يجد ممثلين له أيضًا في الفلسفة الإسلامية، ولكنه عاد إلى الظهور مرة أخرى في عصر النهضة الأوروبية على يد المفكر الإيطالي (لورينسوس فللا) الذي عاش في القرن الخامس عشر، فقد ذهب إلى أن الإنسان يطلب اللذة والسعادة بطبيعته، ولكن اللذة الحقيقة لا يمكن الحصول عليها؛ إلا في السعادة الأبدية بعد الموت، فربط بذلك بين اللذة والسعادة.

وفي القرن السابع عشر ظهر ممثل آخر لمذهب اللذة المرتبط بالسعادة هو «جاسندي»، ثم ظهرت هذه التعاليم مرة أخرى في القرن الثامن عشر في عصر التنوير في فرنسا على يد الفلاسفة الماديين: «لا متريه، هلفيتسيوس، بارون فون هولباخ».

وفي القرن التاسع عشر ظهر مذهب اللذة في إنجلترا على يد (بنتام) وأتباعه[٩]، وكان (بنتام) يقول: «وضعت الفطرة الإنسان تحت حكم اللذة والألم، فنحن مدينون لهما بكل أفكارنا، وإليهما ترجع جميع أحكامنا وجميع مقاصدنا في الحياة، ومن يدعي أنه أخرج نفسه من حكمهما لا يدري ما يقول، فإن غرضه الوحيد-حتى في اللحظة التي يرفض فيها أعظم اللذائذ وتقبل أشد الآلام- إنما هو

(٧) مباحث ونظريات، ص: ١٢٦.
(٨) الأخلاق النظرية، ص: ٢٤٥.
(٩) Reiner: op. Cit .p.38

طلب اللذة والهروب من الألم»[١٠].

وقد تجدد مذهب اللذة في القرن العشرين وطرأت عليه تعديلات على يد ممثل الوضعية الجديدة (موريس شليك) «١٨٨٢ - ١٩٣٦م» وغيره، كما نستطيع أن نتبين مذهب اللذة أيضًا في تعاليم (سيجموند فرويد) «١٨٥٦ - ١٩٣٩م»[١١].

نقد مذهب اللذة:

يتضمن مذهب اللذة كنظرية للسلوك الإنساني بعض ما هو صحيح، وذلك فيما يتعلق بميلنا لتجنب الألم والحصول على اللذة، ولكن هذا المذهب لا يصلح أن يكون مذهبًا أخلاقيًّا، ولا تصلح اللذة أن تكون غاية أخلاقية للسلوك الإنساني، ولو كان يكفي أن ينشد المرء اللذة ويتجنب الألم لكي يكون كائنًا أخلاقيًّا لما وجد أي فرد أية صعوبة في أن يكون صاحب خلق.

ولكن الضمير أو الشعور الخلقي لا يلبث أن يثير في أنفسنا الكثير من الشكوك حول قيمة مبدأ اللذة في توجيه سلوكنا وهداية ضمائرنا، وحينما يتحقق الإنسان من أن حساب اللذات عاجز عن تحقيق التوازن النفسي لصاحبه، وأن حياة اللذة لا يمكن أن تفضي إلا إلى حالة أليمة من التشتت الروحي أو التمزق النفسي-فهناك لا بد من أن يتولد لديه إدراك واضح لعجز اللذة عن تفسير نفسها بنفسها، واقتناع تام بصور مبدأ اللذة عن توجيه السلوك الإنساني كله[١٢].

وهناك -فضلا عن ذلك- مآخذ أخرى على مذهب اللذة نذكر أهمها فيما يلي:

(أ) البحث عن اللذة وما يرتبط بها من سعادة قانون نفسي وليس قانونًا أخلاقيًّا، كما أنه يختلف من شخص إلى آخر، ويتغير أيضًا بتغير الأزمنة والأماكن[١٣].

(ج) أن اللذة ليست خيرًا دائمًا، كما أن الألم ليس شرًّا دائمًا؛ فقد ينقلب الألم لذة وبالعكس، فلذة الشراهة قد تقود المرء أحيانًا إلى المرض وفساد في الصحة، وقد تذهب بالحياة، ولذة الانتقام تعرض صاحبها للعقوبة والندم.. إلخ.

وعلى العكس من ذلك فإن بتر عضو مريض قد يخلص الحياة، وتناول دواء مر تعافه النفس قد يسبب الصحة وما شابه ذلك[١٤].

(د) وأخيرًا يمكن القول بأن كل فلسفة أخلاقية تمجد اللذة، وتوحد بين الخير واللذات الحسية لا بد من أن تنتهي إلى القضاء على كل إحساس بالقيم لدى الفرد، وذلك لأن الإنسان إذا أصبح عبدًا للملذات فإنه لن يلبث أن يضحي بالأعلى في سبيل الأدنى، ومن ثم فإنه لا بد من أن يصبح في النهاية مجرد حيوان أناني[١٥].

---

(١٠) نقلا عن الأخلاق لأحمد أمين، ص: ٥٩، ٦٠.

(١١) Reiner: op.cit.p.40.

(١٢) المشكلة الخلقية، ص: ١٢٠، ١٢١.

(١٣) مباحث ونظريات، ص: ١٢٧ - ١٢٩.

(١٤) المرجع السابق، ص: ١١٧، ١١٨.

(١٥) المشكلة الخلقية، ص: ١٤١.